

ملاحظات حول مدينة توزر وواحتها في نهاية القرن السابع عشر من خلال وقضية المدرسة المرادية

ذاكر سيله*

الملخص

تمثل وثيقة تحييس المدرسة المرادية التي أمر ببنائها محمد باي المرادي بتوزر في نهاية القرن 17 إضافة هامة لمعرفتنا بتطور المشهد العمراني للمدينة وأوضاع واحتها في بداية الفترة الحديثة. وتعتبر هذه المدرسة أولى المعالم الدينية والتعليمية التي شيدتها السلطة العثمانية بتوزر وبجهة الجريد بصفة عامة. تميّز هذا المعلم بوفرة الأملاك المحبسة عليه والتي عكست العناية الفائقة التي كان يوليها مؤسسها منشأته رغبة منه في تدعيم نفوذ السلطة المركزية بهذه المنطقة التي ما زالت القوى المحلية بها خلال هذه الفترة ذات صلاحيات واسعة. وقد أتاحت لنا وثيقة التحييس تبين دور السلطة الرسمية في تدعيم المركز العمراني الجديد بمدينة توزر الذي تمحور حول حي أولاد الهادف وذلك من خلال اختياره ليكون مقرا للمدرسة التي ضمنت أحباسها الكثيرة حسن صيانتها والتكفل برواتب موظفيها وطلبتها. كما سمحت وثيقتنا أيضا برصد وضعية نظام توزيع الماء بواحة توزر في بداية الفترة الحديثة وقدمت معلومات لم يرد ذكرها في المصادر السابقة لها. فمن خلال تفصيل الحقوق المائية للباساتين المحبسة على المدرسة تبينت لنا الخطوط الكبرى للتوزيع المجالي والزمني لمياه واحة توزر خلال هذه الفترة. إضافة إلى ذلك تبرز وثيقة التحييس كشاهدة على أوضاع الجباية وبعض التحولات العقارية التي عرفتها الواحة في بداية الفترة الحديثة، وهي أوضاع استفاد منها أساسا أعيان حي أولاد الهادف الذين ربطت بينهم وبين العثمانيين سياسة تحالف بدأت مع هذه الفترة وتواصلت إلى منتصف القرن 19.

الكلمات المفاتيح: توزر، المدرسة المرادية، الواحة، الماء، حي أولاد الهادف

المرجع لذكر المقال:

ذاكر سيله، «ملاحظات حول مدينة توزر وواحتها في نهاية القرن السابع عشر من خلال وقضية المدرسة المرادية»، السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغربية [نسخة الكترونية]، عدد 1، سنة 2016.

الرابط: <http://www.al-sabil.tn/?p=2095>

* أستاذ مساعد-جامعة القيروان، مخبر الآثار والعمارة المغربية-جامعة منوبة

شهدت مدينة توزر خلال الفترة العثمانية تحولات عميقة شملت خاصة علاقتها بالسلطة المركزية، حيث تخلت عن نزعتها الاستقلالية التي ميزتها طوال فترات من العصر الوسيط، وتطور مشهدها العمراني بتشكيل مجال جديد خارج الواحة مفتكاً بذلك مركزية المدينة من المجال الوسيطي. أما الواحة فقد عرفت أيضاً تحولات هامة شملت أساساً نظام توزيع الماء بها وأوضاعها العقارية وذلك ارتباطاً بتوافد مجموعات بشرية عديدة على المدينة.

ورغم عمق هذه التحولات التي عرفتتها المدينة وواحتها خلال العصر الحديث، فإن معرفتنا ببداياتها تبقى محدودة نتيجة قلة المصادر المتوفرة حول الجهة وخاصة في القرن 17¹. وفي هذا الإطار كان الاعتماد على وثائق الأوقاف لإثراء معرفتنا بهذه الفترة التاريخية، خاصة وأن هذا الصنف من الوثائق يتميز بتنوع وثراء المعطيات التي يوفرها. ويحتوي دفتر الأوقاف المرادية² رسماً لـ «حبس مدرسة توزر»، وهي نسخة من عقد تحبب لعقارات وقفها محمد باي المرادي على المدرسة التي أنشأها بمدينة توزر سنة 1102هـ/1690م. يصحبه "بيان مصرف الحبس" الذي يفصل كيفية توزيع ريع هذه الأحباس على المدرسة وكذلك الجامع الملاصق لها وعلى موظفيهما³. يعود تاريخ أصل هذا الوثيقة إلى سنة 1103هـ/1692، أي بعد فترة تميزت بشدة الصراع على حكم الإيالة التونسية بين محمد باي وأخيه علي باي والذي كانت فيه مدينة توزر إحدى واجهاته⁴. فبعد انتهاء الصراع لفائدة محمد باي بعيد سنة 1686 شهدت البلاد استقراراً مكن من تحسين الظروف التي ساعدت على القيام بالعديد من المشاريع العمرانية والمعمارية التي استفادت منها مدن كثيرة بالإيالة⁵.

وتحتوي الوثيقة على معلومات متنوعة حول مدينة توزر وواحتها في نهاية القرن 17، فهي تبين أهمية الأملاك المحبسة على المدرسة المرادية التي تمثل أولى المعالم الدينية والتعليمية العثمانية بالمدينة، وهي أحباس ساهمت من خلال أهمية ريعها في حسن إدارة المنشأة. كما تبرز الوثيقة كشاهدة على وضعية نظام توزيع الماء وبعض التحولات الجبائية والعقارية التي شهدتها واحة توزر في بداية الفترة الحديثة.

I- المدرسة المرادية: أولى المعالم الرسمية العثمانية بمدينة توزر

تمثل المدرسة المرادية بتوزر أولى المعالم الدينية والتعليمية التي أسستها السلطة الرسمية بالمدينة وبالجزيرة بصفة عامة⁶. أمر ببناء هذا المعلم محمد باي المرادي سنة 1102هـ/1690-1691⁷، أي بعد أن

1- حول مصادر تاريخ مدينة توزر والجزيرة في الفترة العثمانية، انظر: ذاكر سيله، 2013، ص. 17-21.

2- أحمد السعداوي، 2011.

3- نفسه، ص. 329-337.

4- ابن أبي دينار، 1869، ص. 251-252؛ الوزير السراج، 1985، ج. 2، ص. 480 و483.

5- الوزير السراج، 1985، ج. 2، ص. 559-560.

6- أصبحت المدرسة خلال الفترة الاستعمارية مقراً للمحكمة الشرعية بعد أن كانت قبل ذلك في "دار الباي" التي تحولت إلى مقر للمراقبة المدنية. ولم يبق حالياً من المعلم الأصلي سوى الاسم وعوضه معلم جديد يتمثل في الزاوية الإسماعيلية. وحول معالم توزر والجزيرة خلال الفترة العثمانية، انظر: ذاكر سيله، 2013، ص. 57-225.

7- الوزير السراج، 1985، ج. 2، ص. 560.

انتهت الصراعات على الحكم داخل البيت المرادي لصالحه واستقرت الأوضاع بالإيالة، حيث بادر بتأسيس جملة من المنشآت العمرانية والمعمارية في عدة مناطق من الإيالة⁸.

كان اختيار السلطة المرادية على حي أولاد الهادف ليكون مكان بناء المدرسة، وهو اختيار يفسر بسياسة التحالف التي انتهجتها السلطة المركزية مع الاعيان المحليين بدواخل الايالة. فقد مثل حي أولاد الهادف أو "ربط فطناسة" منذ بداية تشكله في النصف الثاني من القرن 15 القسم الذي عمّره أثرياء المدينة وأصحاب النفوذ الأكبر بها، وتطورت مكانته العمرانية من ربض إلى مركز المدينة الحديثة⁹. كما مثل شيوخ هذا الحي الحكام الفعليين لتوزر إلى منتصف القرن 19¹⁰.

أشار الدرعي إلى المدرسة أثناء مروره بمدينة توزر سنوات قليلة بعد تأسيسها ووصفها بالجيدة وذكر أن أعمدتها كلها من رخام¹¹. وحسب نص الوقفية المرادية فإنه كان يقطن بها عشرون طالبا أي أنه من المرجح أن تحتوي المدرسة على الأقل على عشرين غرفة لإيوائهم. وقد مثل هذا المعلم بعد تأسيسه مركزا علميا هاما بمدينة توزر حيث تميز بإشعاع شيوخه وكثرة التلاميذ الذين درسوا عليهم¹².

تعدّ الوقفية الملكيات المحبّسة على المدرسة، وهي ملكيات تتميز بكثرتها وبتوزّعها بين مدينة قفصة وواحتي توزر ونفطة:

أحباس المدرسة المرادية بتوزر	
في قفصة	
جميع الدار والعلو الكائنين تجاه القصبية	
جميع الجنة الكائنة بالغابة	
في نفطة	
سانية الحمام	
غابة الزكيش	
السبخة	
في توزر	
بستان الخزانة وبستان الغرب	
حصّة العمير	
حصّة شاورى	
سانية بن زهمول	
أنفزة أحمد بن علي الهادف	
غابة قصبية السدر	
سانية قرّة	
غابة الزيتونة	
سانية عيبة	
3/5 من جميع سهم الشيخ الصالح سيدي عبد الله	

8- نفسه، ج. 2، ص. 559-560.

9- حول تطور المشهد العمراني لمدينة توزر ومكانة حي أولاد الهادف ضمنه، انظر: ذاكر سيله، 2013، ص. 302-304.

10- Abdelhamid Hénia, 1993, p. 125-148.

11- الدرعي، 1902، ج. 1، ص. 53.

12- حسين خوجة، 1975، ص. 142.

سهم بلقاسم بن عرفة
جميع سهم الوز الفوقاني
جميع سهم الوز الأوطاني
سانية البرج
حسايس حسيب
3/4 من جميع غابة البيثري
بستان عبد الدايم
سانية بن عموش
جميع رأس بستان بن عزيزة
نصف سانية العابد
نصف سانية القايد
دور كسبة
بستان عليوي

تبين من خلال هذا الإحصاء العدد الهام من العقارات المحبسة على المدرسة المرادية وهي في أغليبتها العظمى بساتين، مما يعكس بداية أن أهم ملكية عقارية في منطقة الواحات بصفة عامة هي ملكية البستان. وتبدو أهمية هذه الملكيات من خلال كمية المياه المتحصل عليها، ذلك أن الماء في منطقة الواحات هو الذي يحدد قيمة البستان بل إن ملكية الماء مستقلة عن ملكية الأرض ومتفوقة عليها¹³، وهو ما يفسر التنصيب على كمية المياه المستحقة لكل بستان في وثيقتنا.

ورغم وفرة المعلومات التي تتيحها وثيقة التحبيس، إلا أنها تصمت عن ذكر كيفية تملك محمد باي لكل هذه العقارات وذلك بخلاف وثيقة تحبيس الباي نفسه لبستان "كلم حمو" الكائن بواحة توزر على الشابية والمؤرخة بسنة 1107هـ/1695، حيث تذكر أن التملك وقع "بالمقاسمة والتصيير الصحيح والإرث"¹⁴. فهل أن الأمر نفسه ينطبق على أحباس المدرسة المرادية أم أنه خلاف ذلك؟

رغم عدم توفر معلومات واضحة حول هذه المسألة فإنه يمكن الإستنتاج أن أحباس المدرسة تكشف عن أهمية الإقطاعات العثمانية بتوزر في نهاية القرن 17، وهي فترة بداية السيطرة والهيمنة الفعلية على بلاد الجريد والتي بدأت منذ بداية هذا القرن بحملة عثمان داي على قلعة سدادة وتوزر¹⁵.

يوضح "بيان مصرف الحبس" كيفية توزيع ريع العقارات حسب النظام التالي:

- غلة الربع تبدأ بما تحتاج إليه المدرسة من رمّ وبناء.
- ريالان كبيران ونصف الريال كل شهر لمؤدب المدرسة.
- ثلاثة ريالان كبيرة ونصف الريال كل شهر للمدرس.
- ريالان كبيران كل شهر لإمام الجامع الملاصق للمدرسة.
- ريال واحد كل شهر لمؤذن الجامع.

P. Penet, 1913, p. 93. -13

-14 علي الشابي، 1980، ص. 86-87.

-15 ابن أبي دينار، 1869، ص. 192؛ الوزير السراج، 1985، ج. 2، ص. 349؛ ابن أبي الضياف، 1990، ج. 2، ص. 33.

J. Pignon, 1961, p. 122.

- ريال واحد كل شهر لنقيب المدرسة.
- ريالان كبيران لناظر أحباس المدرسة.
- عشرون ريالاً لعشرين طالبا.
- يصرف الباقي لإصلاح الجامع، وإن كان هناك باق بعد ذلك يشري به ريع يلحق بالحبس المذكور.

ضمنت الأحباس المرادية من خلال أهمية مداخلها حسن إدارة المدرسة وذلك بتكفلها بأعمال الترميم والإصلاح وضمان رواتب الطلبة العشرين وموظفيها، وحتى الجامع الملاصق لها، والمعروف بجامع سيدي عبد الله بوجمرة والذي تصفه وثيقتنا بالـ"جامع ذي الثلاثة أبواب"، فقد شمله أيضا مصرف الحبس بتكفله برواتب إمامه ومؤذنه وصرف ما بقي لإصلاحه وترميمه وتحصيره واستصباحه.

فبتكفلها بمجمل هذه النواحي ترتقي الأحباس إلى مستوى المؤسسة الضامنة لحسن إدارة المنشآت العمومية وبالتالي اضطلاعها بدور اجتماعي و عمراني فاعل بالمدينة. إن أهمية المدرسة المرادية بتوزر، سواء من خلال قيمة أحباسها أو مكانتها العلمية، تبرز العناية الفائقة التي كان يوليها لها مؤسسها. ولعل ذلك يمكن تفسيره برغبته في تدعيم نفوذه في هذه المنطقة التي تعودت على وضع استقلالي منذ العصر الوسيط وخاصة في فترات ضعف السلطة المركزية. فتصبح بذلك مؤسسة الوقف بمثابة الأداة السياسية من أجل تدعيم أركان السلطة العثمانية ببلاد الجريد خاصة وأنها فترة ما زالت فيها القوى المحلية متنفذة وخاصة في مدينة توزر. ولعل هذا الإستنتاج تدعمه وثيقة تحبب بستان "كلم حمو" على الشابية سنة 1107هـ/1695 وذلك نتيجة لمناصرتهم لمحمد باي أثناء حربه ضد أخيه علي باي والتي كانت مدينة توزر إحدى مسارحها. كما يتدعم هذا الرأي كذلك من خلال اختيار الباي لحي أولاد الهادف لبناء مدرسته، ذلك أنه الحي الذي كانت تسكنه العشيرة الأقوى في توزر خلال هذه الفترة.



1. ساحة المدرسة المرادية بتوزر في منتصف القرن 20 وخلفها مئذنة مسجد سيدي عبد الله بوجمرة الملاصق لها (المصدر: أرشيف جمعية صيانة مدينة توزر)

1- نظام توزيع الماء

تقدم وقفية المدرسة المرادية من خلال ذكر البساتين المحبسة عليها وتفصيل حقوقها المائية معطيات هامة عن نظام توزيع الماء بواحة توزر لم يرد ذكرها في المصادر السابقة لها والمؤرخة بالعصر الوسيط.

فالبكري مثلا، والذي يمثل أقدم من تعرض لهذا النظام في القرن 11م¹⁶، أشار إلى الخطوط الكبرى لتوزيع الماء والقائم أساسا على وجود مستويين؛ يتعلق المستوى الأول بحجم الماء في حين يمثل المستوى الثاني زمن الاستفادة منه. وقد دعم ابن شباط في القرن 13م ما أورده البكري عندما ذكر أن لتوزر ثلاثة أنهار ينقسم كل واحد منها إلى ستة جداول¹⁷. أما التيجاني، الذي زار المدينة وواحتها في مطلع القرن 14م، فقد أشار خاصة إلى تقسيم كمية الماء حسب تداول ساعات الليل والنهار مع وجود "أماء من ذوي الصلاح" كانت مهمتهم الإشراف على عملية التوزيع¹⁸.

تذكر وثيقة المدرسة المرادية عددا هاما من أسماء السواقي التي تسقي واحة توزر من بينها أحد الوديان الثلاثة الكبرى التي أشير إليها منذ القرن 11م وهو "واد الأوسط"، كما تذكر الأقسام الثلاثة الكبرى المكونة للواحة وهي "جر الأوسط" و"جر ساقية الربط" و"جر عباس".

تنقسم الوديان الثلاثة الكبرى إلى ستة جداول حسب أول وصف لنظام توزيع الماء بواحة توزر في القرن 11م وإلى سبعة حسب آخر استعمال لهذا النظام في بداية القرن العشرين¹⁹. تنسب الذاكرة الجماعية هذا التحول إلى المؤلف التوزري ابن شباط الذي عاش في القرن 13م²⁰، وهو رأي شائع بكثرة في مدينة توزر أين يرتبط نظام توزيع المياه بواحتها دائما بهذه الشخصية التاريخية، وهو ما يطرح علينا فعلا إشكالية العلاقة بين هذا النظام وابن شباط. إن ما هو متوفر من مصادر ووثائق مختلفة لا يتيح لنا البتة تأكيد هذا الرأي، بل إن هذه الفكرة لم يرد ذكرها في النصوص إلا منذ نهاية القرن 19²¹، أما قبل ذلك فلم يشر إليها أي من الرحالة العرب أو الأوروبيين الذين زاروا المدينة واسترعت انتباههم واحتها ونظام توزيع مياهها. كما أننا لا نجد في «صلة السمط» لابن شباط إشارة واحدة توحى بمساهمته في هذا النظام، بل إننا نراه يؤكد ما ذكره البكري حين ينقل عنه قسمة كل نهر من الأنهار الثلاثة إلى ستة جداول.

انطلاقا مما تقدم يمكن التأكيد أن إضافة ساقية سابعة لكل واد من الوديان الثلاثة المتفرعة من النهر الرئيسي قد تمت بعد القرن 13م، وهي مسألة يمكن ربطها بالتحويلات البشرية العميقة التي شهدتها المدينة منذ هذا التاريخ، حيث بدأت أعداد كبيرة من عرب مرداس في الاستقرار بها²² بعدما كان مشهدها البشري مكونا أساسا من الروم والأفارقة والبربر²³، ثم شهدت بداية من النصف الثاني من القرن 15م وإلى نهاية الفترة الحديثة استقرار مجموعات بشرية عديدة مثل أولاد الهادف والجماعة والزبدة ومسغونة²⁴. فالتحويلات التي شهدتها الواحة طوال هذه الفترة هي إذن استجابة وتوافقا مع التشكلات

16- البكري، 1992، ج. 2، ص. 708-709.

17- ابن شباط، ج. 3 و4، ص. 105 ب.

18- التيجاني، 1981، ص. 157.

19- P. Penet, 1912, p. 4-5 ; idem, 1913, p. 72.

20- V. Pâques, 1974, p. 366.

21- Du Paty de Clam, 1893, p. 331.

22- التيجاني، 1981، ص. 163.

23- اليعقوبي، 1860، ص. 139؛ الإستبصار، 1985، ص. 155.

24- ذاكر سيله، 2013، ص. 305-309.

البشرية الجديدة وما يمكن أن ينتج عن ذلك من تطوّر للمساحات الزراعية وتحول في الأوضاع العقارية وملكية المياه.

وتجدر الإشارة إلى أن الساقية السابعة من كل واد من الوديان الثلاثة في واحة توزر تتكوّن بمعزل عن المصارف الرئيسية لهذه الوديان وهو ما يعكس أن إضافتها متأخر عن التقسيم الأصلي. وهذه السواقي الإضافية هي "ساقية الرقيقة" بالنسبة لواد عباس و"ساقية قرناز" بالنسبة لواد الوسط و"ساقية العقيلي" بالنسبة لواد ساقية الربط. وبالرجوع إلى وقضية المدرسة المرادية فإننا نجد فيها ذكرا لـ"ساقية قرناز" في مواضع متعددة، وبالتالي فإنها تقدم لنا سقفا زمنيا وهو نهاية القرن 17، أي أن هذا التحول قد تم على الأرجح بين القرنين 13 و17.

بعد توزيع الماء بين مختلف أرجاء الواحة يتم احتساب زمن استفادة كل بستان منه وفقا لطرق عديدة وردت الإشارة إليها في وثيقة الوقفية المرادية مفصلة بذلك نسيبا ما ذكرته مصادر العصر الوسيط بصفة إجمالية. فقد استعملت خاصة مواقيت الصلاة لقياس زمن الري ("بعد أذان العشاء"، "من التأهب الأول إلى وقت العصر"). ويكون توزيع الماء حسب نظام "النوبة" أي الدورة المائية والتي تدوم بصفة عامة سبعة أيام، أي أن كل بستان يستفيد من حقه من الماء مرة كل أسبوع، كما يمكن أن تكون الدورة أيضا كل أربعة عشر يوما وتكون هذه الدورة في أغلب الأحيان تكميلية. ولتحقيق التوازن بين المستفيدين، ولإصلاح ما يمكن أن يترتب عن الاختلاف في أوقات الري، تكون الاستفادة "تارة بالليل وتارة بالنهار" و"تارة أولا وتارة أخرا".

بالإضافة إلى ذلك اعتمد القادوس²⁵ لقياس زمن الري في واحة توزر، وهو استعمال قديم تمت الإشارة إليه منذ القرن 11م. فحسب البكري فإن سقي اليوم الكامل هو 192 قدسا²⁶، أي بمقدار 7.5 دقيقة للقادوس الواحد. وقد تطور مقدار قادوس توزر إلى أن أصبح موافقا لخمس دقائق حسب آخر استعمال له في بداية القرن العشرين²⁷.

بالنسبة للوقفية المرادية فقد وقع الإكتفاء فيها بذكر عبارة "القادوس المصطلح عليه بتوزر" في إشارة إلى اختلاف مقداره من منطقة إلى أخرى²⁸. غير أن الالتجاء إلى بعض وثائق الأرشيف يمكن أن يوضح لنا هذه المسألة، حيث احتوت إحدى هذه الوثائق التي تعود إلى نهاية القرن 19 معلومات مفادها وجود قادوس مرجعي معتمد في واحة توزر منذ أكثر من قرنين يسمى "قادوس سيدي التواتي" وقيمه حوالي 4 دقائق²⁹، أي أنها من المرجح أن تكون قيمة "القادوس المصطلح عليه بتوزر" كما ورد في الوقفية المرادية.

وتجدر الإشارة إلى أن أهم استعمال للقادوس بواحة توزر هو لقياس مدة تفويت صاحب الحق في الماء إلى غيره، وهو ما يحيلنا إلى مسألة بيع الماء وشراؤه في منطقة الواحات بصفة عامة. وقد جاء في وقفية

25- القادوس عبارة عن إناء في أسفله ثقب يملأ ماء، والمدة التي يستغرقها نفاذ الماء منه تسمى قادوسا، أي أنه يستعمل للدلالة على الآلة والوحدة معا.

26- البكري، 1992، ج. 2، ص. 709.

27- P. Penet, 1913, p. 76.

28- حول القادوس في واحات الجريد، انظر: ذاكر سيله، 2013، ص. 373-377.

29- أ.و.ت.، السلسلة التاريخية، صندوق 21، ملف 237، وثيقة 56.

المدرسة المرادية ما يفيد ذلك عند التنقيص على حقوق الشرب لكل سانية، من ذلك مثلا أن "جميع السانية نخيلا بغابة توزر بجر ساقية السواني وتعرف بسانية قرّة...من حقوقها الشرب المعلوم لها نصف يوم يخرج منه خمسة وعشرون قادوسا وباقية لها في دور سبعة أيام...، أي أن "سانية قرّة" مطالبة بالتفويت بما يوافق مدّة خمسة وعشرين قادوسا من جملة مدّة نوبتها المحدّدة بنصف يوم وذلك لسانية أخرى.

إن ظاهرة بيع الماء في واحة توزر قديمة، حيث أشار إليها البكري بقوله: "كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع فتر يلزم كل من يسقي منها أربعة أقداس مثقال العام، وقيل يلزم كل من يسقي نهارا أربعة أقداس المثقال في العام، وبحساب ذلك في الأكثر والأقل...³⁰". وقد تواصلت هذه الظاهرة إلى بداية القرن العشرين إذ تمت الإشارة إليها في "جدول الماء"³¹.

إن دراسة نظام توزيع الماء بواحة توزر تسمح لنا بالقول بأنه لم يكن بمستوى الصرامة الفائقة التي أشير إليها غالبا، وهو ما يمكن أن نتبينه من خلال مبدأ "التثقيّل" الذي تقدّم الوقفية المرادية أقدم إشارة نصية إليه. والتثقيّل، كما ورد تعريفه بـ"جدول الماء"، هو "الحق لبستان مجاور لساقية في أخذ جانب من كمية الماء في الأيام التي تجري فيها الساقية في بعض الأجنّة الصادر منها الماء...ومدة التثقيّل يقع قياسها بالقواديس ومقدار الماء المأخوذ لا يمكن أن يكون أقل من سبع كمية الماء بالساقية، والتثقيّل يكون دائما نهارا، ولا ينطبق ذلك بتوزر إلا على ساقية قرناز أثناء بعض سويغات من يومي الأحد والجمعة وعلى مجرح من مجارح مصرف التوانسة صباح يوم الأحد"³².

يوافق هذا الوصف كثيرا ما جاء في وثيقتنا التي تذكر بدورها أن التثقيّل ينطبق على ساقية قرناز ويكون يومي الأحد والجمعة. كما أن التطابق في الوصفين يؤكّد أن نظام توزيع المياه في آخر استعمال له كما ورد في "جدول الماء" كان في خطوطه العريضة مستعملا في نهاية القرن 17 على الأقل.

إن اعتماد مبدأ التثقيّل والإستفادة منه بشكل يصعب معه مراقبة كمية الماء المأخوذة يعكس لنا وجود ملاكين متنفذين في الواحة بإمكانهم الإستفادة أكثر من غيرهم بمياه الري. ولعل هذا الأمر في علاقة بظهور عائلات أو عشائر قوية سيطرت على مدينة توزر بشكل كبير مثل عائلة بني يملول في الفترة الحفصية³³ وعشيرة أولاد الهادف خلال العصر الحديث³⁴.

2- الجباية والأوضاع العقارية بواحة توزر في نهاية القرن 17 من خلال الوقفية المرادية

تقدم لنا الوقفية المرادية معلومات تتعلق بالجباية والتحوّلات التي شهدتها واحة توزر في بداية الفترة الحديثة. وهي في الحقيقة معلومات هامة خاصة أمام ندرة الوثائق المتعلقة بنظام الجباية في العهد المرادي، فمن هذه الفترة لم يصلنا إلا دفتر جبائي وحيد مؤرخ بسنة 1087هـ/1676-1677³⁵.

30- البكري، 1992، ج. 2، ص. 709.

31- P. Penet, 1912, p.5.

32- Ibid., p. 5.

33- حول عائلة بني يملول وتطور حكمهم في مدينة توزر انظر: ابن خلدون، 1983، ج. 6، ص. 928-932.

34- Abdelhamid Hénia, 1993, p. 125-148.

35- محمد فوزي المستغامي، 2010. ; T. Bachrouh, 1972, p. 125-146.

نتبين من خلال وثيقتنا أن الملكيات الحبس كان لديها وضع خاص في نظام الجباية، حيث وقع التخفيف في قيمة جبايتها من خلال تقاسمها مع مختلف المجموعات البشرية المكونة لمدينة توزر. وتخضع هذه الملكيات، مثلها مثل البقية، إلى نظام الخرص كما هو مبين في الوثيقة، والحرص معناه إعطاء قيمة تقديرية للملكية معينة لتحديد حصتها من كامل جباية المجموعة المطالبة بدفعها إلى المخزن³⁶. ومن الضروري الإشارة في هذا الإطار إلى أن كل مجموعة في مدينة توزر كان لها خرص خاص بها، حيث نجد مثلا "خرص فطناسي" أي خاص بعشيرة فطناسة أو أولاد الهادف، وكذلك "خرص جهيمي" أي خاص بعشيرة جهيم، وهو ما يفيد أن كل مجموعة كانت لها معاييرها الخاصة لتقييم ملكياتها وهو ما يعكس وجود استقلالية محلية تميز كل مجموعة³⁷.

يعكس لنا هذا الاختلاف أيضا واقعا عمرانيا ميز المدينة منذ الفترة الحفصية، فقد كانت متكونة من أحياء أو مراكز عمرانية عديدة بعيدة نسيبا عن بعضها ويأخذ كل حي شكل القرية المستقلة، وبالتالي فنحن أمام مشهد عمراني متفتت يجد أسبابه في اختلاف أصول سكان المدينة وتعدد عشائرها. وقد أشارت وثيقتنا إلى بعض هذه الأحياء مثل "ربض جهيم" و"مدينة الحضر" التي مثلت مجال مركز مدينة العصر الوسيط. غير أن أهم ما يجلب الانتباه هو اختلاف قيمة المساهمة في جباية الملكيات الحبس من مجموعة إلى أخرى. حيث نلاحظ تميز "أهل فطناسة" المطالين بالمساهمة في جباية بساتين قيمتها 15 و25 دينارا خرصا، في حين أن بقية المجموعات مطالبة بالمساهمة في جباية مرتفعة مثل "أهل ربض جهيم" (100 و109 دينار) و"جماعة عبد العاطي" (200 دينار).

إن هذا الاختلاف يجد تفسيره في الإمتيازات الجبائية الهامة التي احتكرتها عشيرة فطناسة أو أولاد الهادف³⁸، وهي امتيازات تعتبر مؤشرا على قوتهم الاقتصادية التي ضمنت لهم الهيمنة السياسية على مدينة توزر من بداية الفترة العثمانية إلى منتصف القرن 19، هيمنة كان أهم مظاهرها أن شيخ المدينة تم اختياره من داخل هذه العشيرة طوال كامل هذه الفترة³⁹. وقد امتد نفوذه على كامل بلاد الجريد حتى أن فيليبي الذي زار المنطقة سنة 1829 اعتبره بمثابة "الباي الحقيقي للجريد"⁴⁰.

لقد مثلت القوة الاقتصادية العامل الرئيسي الذي أوصل عشيرة أولاد الهادف إلى هذه المرتبة، وهي قوة تجد أوضح مظهر لها في كثرة تملك البساتين⁴¹ مما أدى إلى تحولات عقارية كبيرة في واحة توزر، ويمكن أن نجد في وثيقتنا صدى لهذه التحولات التي تذكر مثلا: "وجميع الغابة نخيلا بغابة توزر بجر الأوسط بساقية الدفلة وتعرف قديما بأنصرة بن عجمي والآن بأنصرة أحمد بن علي والد بلقاسم بن أحمد بن علي الهادف التوزري". وأحمد بن علي هو أحد أبناء الهادف مؤسس عشيرة أولاد الهادف أو فطناسة. لقد انعكست هذه المكانة الاقتصادية الكبيرة والهيمنة السياسية لهذه العشيرة على حيهم الذي شهد تطورا

Abdelhamid Hénia, 1980, p. 68. -36

Ibid., p. 70. -37

Idem, 1993, p. 141. -38

Idem, 1980, p. 180. -39

Filippi, 1926, p. 54. -40

41- العدواني، 1996، ص. 252-253.

عمرانيا ومعماريا هاما وذلك بفضل بناء وتشبيد العديد من المعالم مما جعله يتميز بوضوح وإلى اليوم عن بقية أحياء مدينة توزر.

خاتمة

تضمّنت الوثيقة المرادية معلومات دقيقة حول الأملاك المحبّسة على مدرسة محمد باي وطرق صرف ريعها مبرزة بذلك المكانة الهامة التي كان يوليها مؤسسها لها. كما قدّمت لنا معطيات حول وضعية نظام توزيع الماء بواحة توزر في بداية الفترة الحديثة، وهي معطيات وردت الإشارة إلى بعضها لأول مرة في وثيقتنا، مما يمكننا من مزيد فهم تطور هذا النظام ورصد التحولات التي عرفها. بالإضافة إلى ذلك أتاحت لنا الوثيقة تبين وضع الجباية وبعض التحولات العقارية بواحة توزر في نهاية القرن 17. وقد مثلت الوثيقة من خلال مجمل المادة التاريخية التي وفّرتها شاهدة على المكانة الكبيرة التي عرفها خلال هذه الفترة حي أولاد الهادف أو "ربط فطناسة" الذي شيّدت داخله المدرسة المرادية وتمتّع أعيانه بأكبر الامتيازات الجبائية إضافة إلى تملكهم لأكثر سواني الواحة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
 أَحِبَّاسِ مَرْسَةِ تَوَزُّرٍ مِنْ عَصْرِ الْجَدِيدِ الَّتِي انْقَسَمَتْهَا
 الْمَرْغُومَةُ الْمُنْعَمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بَدِيٌّ وَجَدَّ لِلدَّخْلِ عَلَى

الْحَمْدِ لِلدَّخْلِ عَلَى تَسْمِيَةِ مَنْ مَضَى فِي أَحِبَّاسِ الْمَرْسَةِ الْمَذْكُورِ
 وَجَلَّ بِالرَّبِّ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ بِمَنْ مَضَى فِي أَحِبَّاسِ الْمَرْسَةِ الْمَذْكُورِ
 أَنْ يَنْفَعُوا رَأْسَ الْبَيْتِ تَذَكُّرًا وَيُقَسِّمُوا بِعَلِّ بْنِ الْحُسَيْنِ مِنْ أَحِبَّاسِ الْعَصْرِ الْكَارِوَجِ
 الصَّالِحِ السَّخِيحِ الْإِلْمَانِ الْمَوْجِدِ الْإِلْمَانِ الْإِسْعَلِ الْإِلْمَانِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ
 مُحَمَّدٌ بَدِيٌّ صَالِحٌ الْمَعَالِ الْمُنْعَمُ وَجَدَّ لِلدَّخْلِ تَعْلِيْقُ الْمُنْعَمِ الْمَرْغُومِ الْمَرْغُومِ
 الْعَبْدِيِّ الْمَرْغُومِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ
 الْمَرْسَةِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ
 إِثَابَهُ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ
 بِيْلَهُ فَهَيْئَةً تَهْلِكُ الْفَصِيحَةُ الْمَعْرُوفَةُ وَبَيْنَ هَذَا الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ
 مَرَادُ بَدِيٍّ الْمَذْكُورِ مَعْرُوفَةٌ مَغْنِيَةٌ عَنِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ
 بَغَابَةُ بِلْ فَهَيْئَةً الْمَعْرُوفَةُ مِنَ الْفِعْلِ شَعْبًا وَالْقَبْسُ الْقُرُوفُ بِالْجَارِ وَالْمَرْغُومُ مِنَ الشَّرْفِ
 الْمُنْفَعُ مِنَ الْعَرَبِ بِسْتِزَانٍ قَانِزِينَ وَعَزْرًا وَنَشْرًا بِعَدَّةِ الْجَمْعِ وَبِهِمْ سَبِيحٌ
 الْغَايَةُ الْكَائِنَةُ بِالْمَكَانِ الْمُنْفَعُ كَرُورًا وَتَعْرُفًا بَغَابَةُ الْزَيْتُونِ بِعَدَّةِ مَا قَبْلَهُ جَفَانٌ وَرُ
 جَامِلٌ بَيْنَهُمَا طَرِيقٌ وَسَيِّدٌ فَكَيْفَ سَبِيحٌ أَنْ كَمَا هُوَ وَجَمْعُ سَبِيحِ السَّبِيحَةِ
 بِالْمَكَانِ يَجِدُهَا سَبِيحٌ فَهَيْئَةً كَرُورًا وَجَمْعُ سَبِيحِ السَّبِيحَةِ سَبِيحٌ عَنِ الْعَبْدِ الْعَبْدِ
 وَجَمْعُ سَبِيحِ السَّبِيحَةِ نَحْوًا بَغَابَةُ تَوَزُّرٍ الْجَارِ إِذْ تَسْمَا فِعْلًا بِالْبَلَدِ
 وَبَعْدَ بَارٍ بِيْسْتِزَانٍ الْغَزَارَةُ وَبَسْتِزَانٍ الْعَرَبِ الْمُنْفَعُ الْمُنْفَعُ وَتَشْرُفُ قَسْمًا
 بِرَأْسِ الْكَلْبِ مَوْجَعًا الْمَذْكُورِ تَقْبِيحٌ عَنِ الْقَبْرِ هَمَامٌ مَعَالِمًا مِنَ السَّوْبِ
 الْعَلُومُ لَهَا وَذَلِكَ مَا يَبْقَى فَادُورًا وَتَحْصِيَّةً فَوَادِي بِرِجَالِ الْعَادِ وَسِرِّ الْمَصْطَلِمِ
 عَلَيْهِ تَوَزُّرٌ وَذَلِكَ بَعْدَ السَّبِيحِ أَوْلَادُ الْإِسْعَلِ وَجَمْعُ سَبِيحِ الْحَمَّةِ بِحَيْلًا
 بَغَابَةُ تَوَزُّرٍ كَالْأَوْسَعِ وَتَعْرُفًا بِعَدَّةِ الْعَبْدِ وَتَقْبِيحٌ قَبْلَهُ الْإِسْعَلِ تَقْبِيحٌ عَنِ
 تَحْلِيْقِهِ هَامًا وَمِنْ هُنَا فَهِيَ الْجَارِ الْمَلَاوُ الشَّرْبُ الْعَلُومُ الْعَلُومُ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ
 سَبِيحَةُ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ الْإِسْعَلِ

2. صورة لجزء من الصفحة الأولى من وقفية المدرسة المرادية بتوزر (المصدر: أ.و.ت., دفتر 3992, ص 313)

المصادر والمراجع

- ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم، 1968، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس.
- ابن أبي الضياف أحمد، 1990، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، 8 أجزاء، تونس.
- ابن شباط، صلة السمط في سمط المرط، مخطوط دار الكتب الوطنية، تونس، ج. 3 و4، رقم 6506.
- البكري أبو عبيد الله، 1992، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب وبيت الحكمة، تونس، جزآن.
- التيجاني عبد الله، 1981، الرحلة، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس.
- ابن خلدون عبد الرحمان، 1983، كتاب العبر، 7 أجزاء، بيروت.
- خوجة حسين، 1975، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر العموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس.
- الوزير السراج محمد الأندلسي، 1985، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، 3 أجزاء، بيروت.
- الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر، 1902، الرحلة الناصرية، جزآن، فاس.
- اليقوبي، 1860، كتاب البلدان، ليدن.
- مجهول، 1985، الإستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء.
- الفاصي الحسن الوزان، 1983، وصف إفريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، جزآن، بيروت.
- السعداوي أحمد، 2011، تونس في القرن السابع عشر: وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمنوبة.
- سيلا ذاكر، 2013، المعمار والتعمير ببلاد الجريد من القرن 16 إلى القرن 19، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التراث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.
- الشابي علي، 1980، "العلاقات بين الشبابية والأثراك العثمانيين بتونس بين أواخر القرن السادس عشر ونهاية القرن السابع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 17-18، تونس، ص. 69-89.
- العدواني محمد بن محمد بن عمر، 1996، تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- المستغامي محمد فوزي (مراجعة وتوضيب)، 2010، كراسات الأرشيف: الدفتر الجبائي رقم 1، الأرشيف الوطني، تونس.

Bachrouch Taoufik, 1972, « Sur la fiscalité mouradite: présentation d'une source et des premiers résultats d'une enquête en cours », *Les Cahiers de Tunisie*, t. XX, n°79-80, p. 125-146.

Du Paty de Clam, 1893, « Etude sur le Djérid », *Bulletin de géographie historique et descriptive*, p. 283-338.

Filippi, 1926, « Itinéraire dans quelques régions du Sahara (5 mars- 8 mai 1829) », in *Revue Française d'histoire d'outre-mer*, 4^e trimestre, p. 537-590.



Hénia Abdelhamid, 1980, *Le Ğrid ; ses rapports avec le Beylik de Tunis (1676-1840)*, Publication de l'Université de Tunis, Tunis.

- 1993, « Mémoire d'origine d'un lignage dominant le pouvoir local à Tozeur (XVI^e-milieu XIX^e s.) », in *Mélanges offerts à Mohamed Talbi*, Publications de la Faculté des Lettres de la Manouba, p. 125-148.

Pâques Viviana, 1974, *L'arbre cosmique dans la pensée populaire et dans la vie quotidienne du nord-ouest africain*, Paris.

Penet Paul, 1912, *Tableau d'eau de Tozeur*, Tunis.

- 1913, *L'hydraulique agricole dans la Tunisie méridionale*, Tunis.

Pignon Jean, 1961, « Un document inédit sur la Tunisie au début du XVII^e siècle », *Les Cahiers de Tunisie*, n°33-34-35, p. 109-219.